5 - 4
الدراسات الأثنوآركيولوجية :اصولها و تطورها و توجهاتها

البدايات

- منذ الخمسينيات من القرن الماضي ، دخل علم الآثار فى مرحلةٍ جديدةٍ تمثلت بطرح العديد من الأسئلة عن المادة الأثرية و التى تجاوزت أُطر ما سبقها من مراحل كالجانب الإستكشافى و من بعده الجانب الزماني والمكاني (التأريخ).
- و إنطلقت هذه المرحلة الجديدة منبثقة من أسسٍ نظريةٍ جديدةٍ استلهمت من الدراسات المتعلقة بعلم الإنسان بشكل عام
- فبرزت الحاجة لدى الآثاريين للتحقق من مدى صحةِ الاستنتاجات التي يمكن استنباطُها من المادةِ الأثرية والتنويع في طبيعةِ الأسئلة التي يمكن طرحها للوصول إلى معلومات عن الجوانب الثقافية المختلفة.
- و بالتالى دعت الحاجة الآثارين إلى محاولة فهم طبيعة العلاقة بين السلوك الإنساني والمادة التي يستخدمها، إلى إجراء العديد من الدراسات التي يمكن من خلالها ملاحظة هذه العلاقة والعوامل والتغيرات التي تؤثر فيها. يندرج هذا النوع من الدراسات تحت مسمى الأثنوارکيولوجي.

❑ إذن ماهية هذه الدراسات؟ وما أهدافها؟ وما القواعد أو الأسس التي تستندإليها؟ و ما طبيعة الجوانب المعرفية التي يمكن توظيفها في خدمة علم الآثار؟

النشأة و التطــور

- الأثنواركيولوجي مجالُ بحث لأجوبةٍ تُطرح عند دراسة المادة الأثرية من أجل الوصول إلى معرفةٍ النظام السلوكي الذي يحكم طبيعةُ المادةِ. أى فهم العلاقة بين المادة الثقافية material culture والثقافة الاجتماعية social culture.
- و لذا، (كما أسلفنا القول سابقاً) تستند الدراسات الأثنواركيولوجية على اختبار مجالات متعددة ونقصد هنا البحثُ فى السلوك الاجتماعي الثقافي من منظور أثري عن العلاقات التي يمكن تحديدها بين السلوك الإنساني والمادة الثقافية (أى المخلفات الأثرية من أدوات خشبية و حجرية، كما يمكن إدراج الطعام تحت هذا المفهوم).
- بناءا على ما تقدم، يمكن إدراج الإثنوآركيولوجيا تحت مفهومين متكاملين هما:

1. إيجاد العلاقةِ بين الحاضر و الماضي من أجل تحديد أوجه الاختلافِ والتشابهِ بين المصدرِ والموضوع. أي الاعتماد على استخدام ما يسمى المقارنة بالقياس (Analogy).
2. وضع واختبار للفرضيات، والنماذج والنظريات التي تنبع من اهتمام أو توجه أثري من خلال دراسة المعلومات الأثنوغرافية.

تابع / النشــأة و التطــور

- لذا فان مصطلح أو تعبير أثنواركيولوجي يجمع بين مصطلح الآثار(Archaeology) و الأثنوغرافيا Ethnography ومن أوائل المستخدمين لهذا المصطلح الباحث فِيوكيث Fewkes فى (1900).

- و يمكن توصيفِ العلاقةِ بين المصطلحين في بدايةِ القرن العشرين وكيفية تطورهما كما يلى:-

1. ملاحظات اثنوغرافية شكلّت مصدراً غير مباشر للآثاريين.
2. دراسة أثنوغرافية تتعلقُ بالتقنية أو بالحِرف المختلفة أجريت لأهداف تخدم علم الآثار.
3. دراسات أثنوغرافية للثقافة بِشكل كلي مع التركيزِ على المحتوى الثقافي من أجل الوصول إلى استنتاجاتٍ أثرية.

الاتجاهاتُ النظريةِ في علمِ الآثار والأثنوآركيولوجيا

- تأثرت الأثنواركيولوجيا تأثيراً مباشراً بطبيعةِ الاتجاهاتِ النظريةِ التي أثّرت في علمِ الآثار منذ الستينيات من القرنِ الماضي. إذ يمكن تمييز ثلاث مراحل أدّت إلى التغيرِ في المحتوى النظري للدراسات الأثنواركيولوجية وكذلك المواضيع التي تَم التعاملُ معها.
- و كل مرحلةٍ من هذه المراحل ترتبطُ بتغيرٍ في النواةِ النظريةِ لعلم الآثار (أي الجوانب التي يعتقد أنَّها تمثلُ العواملُ السببيةِ التي تؤدي إلى التنوعِ في المادة الثقافية). هذه المراحلُ هي:

المرحلة الأولى 1968 – 1981

- شهدت هذه المرحلة تغيراً في طبيعةِ أهداف علم الآثار من جهةٍ والمنهجيةِ المتبعةِ في تفسيرِ الماضي من جهةٍ أخرى. حيث دخلَ علم الآثار في عهدٍ جديدٍ يسمى علم الآثار الجديد New Archaeology.
- ومن المفاهيم النظريةِ الأساسيةِ لهذه المرحلةِ هو تبني مفهوم وتعريف الباحث وايت (White) للثقافةِ والمدرسة الإيكولوجية التى ترتكز على «أن الثقافة هى طريقةُ تكيف الإنسان مع البيئة».
- إن الدراساتِ الأثنواركيولوجية الجديدة التي برزت أو تلك التي استمرت خلالَ هذه المرحلة شملت دراسة الفخار، والأدوات الصوانية والمباني السكنية وكيفية تشكُلُ السجلِ الأثري (Archaeological record)

تابع / الاتجاهاتُ النظريةِ في علمِ الآثار والأثنوآركيولوجيا

المرحلةُ الثانية . 1982 – 1989

- تميزت هذه المرحلة بالدعوةِ إلى الحد من الأهمية المطلقةِ التي تُعطى للبيئةِ وتجاهل جوانب ثقافيةً لها دوراً في تشكيل الثقافة. هذه الدعوةُ ارتبطت عام 1982 بكتابات عالم الآثار البريطانى إيان هُودر Ian Hodder.
- ركّز هُودر على محورين مهمين في دراساته:
  - المحور الأول تمثلَ فى التركيزِ على دراسة دورِ المادة الثقافيةِ في تشكيل الثقافةِ أي تقديم مفهوم جديد للثقافة،
  - والمحور الثاني ركز على أهمية دراسة المحتوى/الوعاء context الذي يرتبط بالمادة الثقافية، منطلقاً من جانب نظري يركز فيه على البنية –Structure- بدلاً من النظامِ --System -- ودعا إلى التركيزِ في الدراسات الأثنواركيولوجية والأثرية على جوانب مثل الفكر والسلطة والرمزية والتركيبة الإجتماعية.
- وتاسيساً على ما تقدم ، ظهرت دراسات أثنواركيولوجية تتناول معنى الزخارف المطبقة على الأواني الفخارية والمحتوى الاجتماعي للتقنية ومفهوم الاثنية ونظام التفكير والرمزيةِ المتضمنةِ للمادة الثقافية.

تابع / الاتجاهاتُ النظريةِ في علمِ الآثار والأثنوآركيولوجيا

المرحلةُ الثالثة: 1990 -الى الوقت الحاضر

- هيمن الباحثون الغربيون على الدراسات الإثنوآركيولوجية و حددوا مساراتها فى المراحـل السابقة.
- ما يُميزُ هذه المرحلة هو توجه العديد من المختصين من غير الغربيين فى الدراسات الأثنواركيولوجية إلى دراسة مجتمعاتهم المحلية. مثل الأفارقة والأتراك والهنود واليابانين والصينين والعرب.
- شكّلَ هؤلاء الباحثون غير الغربيين منهجاً جديداً أصبح يندرج تحت ما يسمى مدرسة ما بعد الاستعمار – Post-colonialism.
- فظهرت دراسات أثنواركيولوجيا **تهتم بدراسة الفكر المحلي** من خلال المادة الثقافية، وكيفية فهم التقنية والسيطرة عليها، ودراسات تتعلق بكيفية تقسيم العمل وطبيعة الإنتاج. أيضاً هناك دراسات ركزت على مميزات المجتمعات المركبة ودراسة المجتمعات الرعوية.
- عموماً، لا بُدَ من الإشارة هنا إلى أن **الجانب الفكري** شكّل محوراً مهماً لهذه الدراسات.